كيان مستقل

لقد أيقن محمد علي باشا أن الاستمرار في تنفيذ أوامر الباب العالي سيقضي على كل أحلامه، وستعوقه عن تنفيذ مخططاته، فقرر أن يستقل بمصر عن الدولة العثمانية، خاصةً أن الغرب قد تفاوض معه ككيان مستقل غير تابع للسلطان العثماني، فقال يومًا ما للاظ بك وهم يحتسيان القهوة والباشا يدخن:

- لابد لنا يا لاظ من ضم سوريا إلينا..

وقد وقع كلام الباشا على لاظ وقعًا شديدًا أصابه بالقلق، فما يقوله الباشا يعني تحدي الباب العالي، ولم يدرك لاظ المسكين أن الدولة العثمانية لم تعد تمثل للباشا أي وزن من أي نوع، بعد أن لاحظ مدى ضعفها خلال الحرب اليونانية، التي ثبت بالدليل القاطع أن جيشه أفضل تنظيمًا وأكفأ تدريبًا وأكثر انضباطًا من جيشها، فأصبحت تعتمد على الجيش المصري لحل مشكلاتها، كما أنها لم تعد قوة عظمى في المنطقة، وحان الوقت لاستبدالها بقوة أخرى أكثر شبابًا وتطورًا، تستطيع أن تتعامل مع باقي القوى في العالم، كما أن الباشا رأى سياسته تجاه دول أوروبا ستكون أنجح من سياسة الدولة العثمانية التي فشلت في سياستها الخارجية بقدر ما فشلت في حروبها، وقد قرر ألا يتورط معها في أيَّة حروب أخرى، وبالطبع كان لاظ لا يدرك كل ما

يفكر فيه الباشا، وبالتالي كان الباب العالي يمثل له المارد الأكبر الذي لا يمكن عصيانه، ولكن لاظ قرر مجاراة الباشا في الحديث كعادته في الكلام قائلًا:

– ستكون هذه فرصة جيدة يا أفندينا لإعادة الفلاحين الهاربين هناك، والذي وصل عددهم إلى ما يقرب من ستة آلاف، وقد بلغني أن عبد الله باشا والي صيدا، قد قال أنهم ليسوا عبيدا في مصر، ومن حقهم كرعايا للدولة العثمانية أن ينتقلوا إلى أي مكان فيها بحرية.

– إذن سنعيد الستة آلاف يا لاظ يزيدون واحدًا..

فأدرك لاظ أن الباشا يقصد عبد الله باشا نفسه، ثم قال للباشا في حذر شديد:

– ولكن عفوًا يا أفندينا، بماذا سنفسر سبب حربنا على الشام بالنسبة للباب العالي؟

– على أية حال يا لاظ، سنعلن أننا ذاهبون لنقاتل عبد الله باشا الذي يحكم صيدا بشكل شبه مستقل عن الدولة، فإذا كان يعتبر نفسه حاكمًا مستقلًّا، فأهلًا باستقلاله الذي سيجعلنا نقاتل ولاية مستقلة لا شأن لها بالدولة.

– إن هذا الباشا يطمع في حكم الشام جميعًا يا أفندينا!

- أعلم ذلك يا لاظ بك، والغريب أنه نسي فضلنا عليه عندما شفعنا له لدى السلطان، عندما قام بعزله!

- إن ولاية صيدا التي يحكمها من أهم ولايات الشام يا أفندينا، وتتبعها عديد من المدن ومن بينها مدينة عكا المحصنة نفسها!

- بالتأكيد يا لاظ بك، سوف يستقر في عكا في حالة زحفنا إليه..

وهكذا قرر الباشا زحف حملة ضخمة بقيادة ابنه إبراهيم باشا في صيف سنة ١٨٣١، ومعه الكولونيل سيف المعروف بسليمان باشا الفرنسي، ولكن تأخر زحفها بسبب وباء الكوليرا الذي أصاب البلاد، وأودى بحياة ١٥٠ ألفًا من الشعب المصري، وشمل أيضًا ما يقرب من خمسة آلاف وفاة داخل صفوف جيش إبراهيم باشا، وتم تحرك الحملة في أكتوبر ١٨٣١ إذ شمل التحرك جزءًا منها برًّا والباقي بحرًا. ويذكرنا تحرك هذه الحملة بما فعله نابليون عندما غادر مصر بحملة مشابهة لاحتلال سوريا، واحتل غزة ويافا وحيفا، وواصل زحفه حتى توقف أمام أسوار عكا، وفشل في اقتحامها منذ نيِّفٍ وثلاثين سنة، أما إبراهيم باشا، فقد نجح فيما أخفق فيه نابليون وجيشه الفرنسي؛ ففتح عكا بجيشه المصري. وقد كانت عكا على جانب عظيم من المنعة، فهي التي أعجزت نابليون منذ نيف وثلاثين سنة عن فتحها، ولم يقتنع الباب العالي بالطبع بالأسباب التي أعلنها الباشا لقتال عبد الله باشا، وأرسل إليه مبعوثًا خاصًّا ليطلب منه وقف الحملة، ولكنه

تحجج بحجج أخرى رفضها السلطان، وقام بعزله عن ولاية مصر. وأمر بحشد جيش كبير بقيادة عثمان باشا، ليوقف زحف إبراهيم باشا وينقذ عكا من الحصار، فترك إبراهيم باشا قوة مناسبة لاستمرار حصار عكا، وقام بملاقاة الجيش العثماني قبل أن يصل إليه، وتم الصدام بين الجيشين المصري والعثماني في عدة معارك، من بينها معركة سهل الزراعة، وفيها هاجم جنود عثمان باشا الجيش المصري وأحاطوا به من كل جانب، وخُيِّل إليهم أنه أصبح في قبضة يدهم، لكن إبراهيم باشا بمعاونة سليمان باشا الفرنسي رتب الجنود المصرية على هيئة صفوف منتظمة متراصة، ووضع وراءها المدافع حتى لا يراها المهاجمون، فانخدع عثمان باشا بهذه الحيلة، وهجم بكل قواته على الصفوف المصرية التي ظلت ساكنة لا تتحرك حتى صار الأعداء على مسافة قريبة، فارتد المصريون وراء المدافع، فقامت بإطلاق نيرانها فحصدت المهاجمين مشاةً وفرسانًا، فوقعت بهم الخسائر الفادحة وانسحبوا وفروا، فتعقبهم المصريون إلى نهر العاصي إذ غرق كثيرٌ منهم.

وبعد أن تأكد إبراهيم باشا من تمام هزيمة الجيش العثماني، وعدم وجود قوات كافية متبقية مع عثمان باشا لإعادة الهجوم، عاد بقواته إلى عكا واستمر ضرب المدفعية لأسوار عكا بكثافة رهيبة، حتى أحدثت عدة ثغرات بالأسوار، فدخل منها الجيش ودار قتال عنيف وشرس قاده عبد الله باشا من الداخل، فلما شعر أهل عكا أنهم قد أُحيط بهم، طلبوا من عبد الله

باشا الاستسلام، وطلب الأمان من إبراهيم باشا، فاضطر عبد الله باشا بضغط من أعيان المدينة أن يستسلم.

وقد عامله إبراهيم باشا معاملة طيبة وأرسله معززًا مكرمًا إلى والده في مصر، وهكذا تم فتح عكا في ٢٧ مايو ١٨٣٢، بعد أن استمر حصارها ستة أشهر، فقدَ خلالها الجيش المصري أربعة آلاف وخمسمائة قتيلا.

ويقول الرافعي: "فلا غرو أن كان لفتح عكا دوي عظيم تجاوب في الخافقين، فإن عكا هي التي امتنعت على نابليون، وعجز عن فتحها وارتد عنها خائبًا، فانتصار إبراهيم باشا في فتحها هو صفحة مجد وفخار للجيش المصري، ومن الواجب تقديرًا للحقيقة أن ننوه أن نابليون قد حاصر عكا من البر فقط، وكان الأسطول الإنجليزي يدافع عنها من البحر، ويمنع وصول أي إمدادات لنابليون، بينما كان إبراهيم باشا يحاصرها برًّا وبحرًا"

وقد كان لسقوط عكا تأثير ابتهاج عظيم في مصر، فأقيمت الزينات في القاهرة ثلاثة أيام متواليات، وبعد أن نظم إبراهيم باشا قواته ومنحهم فترة للراحة، قام بالزحف على دمشق وفتحها، وصلى الجمعة في الجامع الأموي الشهير. وقد غضب السلطان العثماني غضبًا شديدًا لما حققه إبراهيم باشا من انتصارات، فقرر حشد جيش آخر بقيادة حسين باشا، ووعده بولاية مصر إذا تمكن من هزيمة إبراهيم، وبالفعل التقى الجيشان في معركة حمص، في يوليو ١٨٣٢ التي انتصر فيها الجيش المصري انتصارا ساحقا، ودخل مدينة حمص بعد أن قتل ألفين من الجيش العثماني، وأسر ألفين وخمسمائة،

بينما لم يخسر الجيش المصري سوى اثنين ومائة قتيل، ثم استمر زحف إبراهيم باشا إلى حماه، ثم حلب، ثم وقعت معركة بيلان التي انتصر فيها أيضًا الجيش المصري، وسيطر بعدها على أنطاكية واللاذقية، واستمر زحف إبراهيم بجيشه حتى عبر نهر جيحون وسيحون، واحتل طرسوس، وأخذ يوطِّد مركزه وينظم الولايات التي فتحها، كما أرسل بعض الكتائب لاحتلال عينتاب ومرعش وقيصرية، وأصبح الجيش المصري على مشارف الأناضول، وأراد إبراهيم أن ينتهز الفرصة الثمينة لاحتلال قونية قبل أن يتمكن الباب العالي من التقاط أنفاسه وتجميع قواته، ولكن والده لم يسمح له بذلك واكتفى بهذا القدر على الأقل حتى الآن.